احاديث المعراج

قد صحت الأخبار فيما لا يحصى من كتب الاسلام أن رسول الله عليه الصلاة والسلام عرج به إحدى الليالى ، قبل أن يهاجر إلى المدينة ، إلى السموات العلى ، حتى دنا من رب العزة وتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله إليه من الحكم والأحكام ما أوحى ، وفرض عليه الصلوات الخمس ، ورأى الأنبياء فى السموات على تفصيل فيه ، ورأى آيات عظيمة كبرى لا يعلمها الا الله . كل ذلك فى ليلة واحدة ، ثم رجع به إلى مكة المكرمة فى الليلة فأصبح يحدث الناس ببعض ذلك فصاروا ما بين مصدق ومكذب

روى ذلك أعلم علماء الاسلام ، فى أصح كتب الاسلام بعد القرآن . رواه البخارى ومسلم وعامة المحدثين ، وشاع بين الخاصة والعامة شيوعا يكفى بعضه أن يكون المعراج من المتواترات التى لا تقبل النزاع . وقد جهر القرآن بذلك أيضا ، فقال في سورة النجم (والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى)

فالمعراج ثابت فى القرآن ، وفى السنة المتواترة ، فهو من يقينيات الدين . هـذا إجمال أمر المعراج بلا تفصيل لـكل ماحصل فى تلك الليلة العظيمة

وقد استشكل فريق من الماديين، ومن يأخذون أخذهم من المسلمين أمر المعراج فأنكروه ، ووجهوا إليه مايأتي من الشبهات :

قالوا أولا : إن الأحاديث تدل أن الاسراء والمعراج كانا فى ليلة واحدة . وقد ذكر القرآن الاسراء فى سورة الاسراء منوهاً بشأنه قال (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا) ولم يذكر المعراج والمعراج بلا ريب أعظم من الإسراء ، وأرفع . فلماذا ذكر الاسراء دون المعراج ، وهما فى ليلة واحدة وفى طريق واحد ، وأحدهما بعد الثانى ؟ ليس لهذا السؤال جواب مرض إلا أن يقال : إنه لم يكن معراج ، أو يقال إن الاسراء كان فى ليلة والمعراج فى ليلة أخرى . وهذا القول خلاف الأحاديث

وقالوا ثانياً : إن الأخبار فى المعراج فيها اختلاف كثير ، حتى وقع الاختلاف فى الأحاديث الصحيحة منها . ففيها اختلاف فى منازل الأنبياء فى السماء ، واختـلاف هل كان يقظة أم مناماً . وهل كان الاسراء والمعراج فى ليلة أم فى ليلتين . وهل كان بالروح وبالجسد أم بالروح فقط . وبالجملة وقع اختلاف كثير فى كثير من أمور المعراج . والاختلاف إذا اشتد يوجب سقوط الروايات وتساقطها .

وقالوا ثالثاً : فى أخبار المعراج ما هو محال لاتمكن صحته . ففيها أنه

صلى بالأنبياء فى بيت المقدس ، وأنه رآهم فى السموات ، ورأى موسى يصلي فى قبره . فهل يمكن ذلك ؟ أوليس فى هذا ما يشهد على أن الشخص الواحد قد توجد له عدة ذوات إلا أن يقال : إن الأنبياء كانوا فى تلك الليلة ينقلون من مكان إلى مكان ، فرآهم فى الأرض ، ثم عرج بهم إلى السموات فرآهم هناك ، وهكذا يقال فى صلاة موسى فى قبره

وأيضاً كيف ذلك ؟ ! فهل أحياهم الله في تلك الليلة ؟ ! أم الأنبياء أحياء لايموتون . وأنتم لا تقولون بذلك ، وهو خلاف النصوص ؟ ! أوليس قد صح عن رسول الله انه قال « اذا مات ابن آدم انقطع عمله » الى آخره ؟ ! فصلاتهم فى بيت المقدس وصلاة موسى فى قبره مخالفة هذا الحديث . فأيهما يقبل وأيهما الصحيح ! !

وأيضاً قد رأى النيل والفرات عند سدرة المنتهى ، وهذان نهران فى الأرض . فكيف يمكن هذا ؟ !

وأيضا إنه قد رأى نسمات الكافرين والمؤمنين فى السماء عن يمين آدم وشماله . وقد قال الله تعالى (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين) فهل نقبل الروايات ، وقد خالفت القرآن الكريم ؟! ثم هل الأرواح ترى؟ ! وهل هى من مدركات البصر ؟ !

وأيضاً فى الروايات أن الملائكة قد شقوا صدره عليه السلام قبل أن يعرجوا به ، وأخرجوا منه نصيب الشيطان ، وملؤوه حكمة وإيماناً . وفى هذا كله غرابة وبعد عن العادة

هذه الأمور كلها تدل على اختلاق الروايات في المعراج . فان من الدلائل على كذب الرواية أن تحمل ما لا يعقل

وقالوا رابعاً : إن الهواء يوجد فوق الأرض عدة أميال فقط ، وبعد ذلك يفقد . والهواء ضرورى للحياة . فلا يعيش إنسان ولا حيوان بدونه ، وبدون أن يملأ رئتيه منه . فلو كان رسول الله ﷺ عرج به إلى ما فوق الهواء لما أمكن أن يبقى حياً .

وقالوا خامسا : إن أخبار المعراج تدل على أنه فتحت له أبواب السماء . ونحن نعرف أنه ليس للسموات أبواب تفتح بل السموات لا تقبل الخرق والالتئام

وقالوا سادساً : الروايات تدل أيضاً على أن السموات سبع ، وأنها غير النجوم المعروفة لأهل التنجيم والفلك . وهذا كله غير صحيح

وقالوا سابعاً : الأخبار تقول إن ذلك المعراج وقع فى ليلة واحدة . وهل هذا يستطاع . وكم بين السماء والأرض من المسافات . هذا مالا يكاد يصدقه العقل

هذه شبهاتهم على المعراج . وغالب هذه الشبهات هى فى الحقيقة شبهات من ينكر القادر المختار . فهي شبهات على جميع الاديان ، وعلى المعجزات عامة . وهى شبهات مادية إلحادية صرفة

أما قولهم : لماذا لم تذكر سورة الاسراء المعراج مع الاسراء ، وهما فى ليلة واحدة . فنقول: إن العلماء قد اختلفوا هل كان المعراج والاسراء فى ليلة أم ليلتين . قال بكل طائفة . واحتجت كل طائفة بروايات . فقد

جاء في الروايات الصحيحة ما قد يدل على أنهما كانا فى ليلة واحدة . وجاء فيها ماقد يدل على أنهما كانا في ليلتين . وعلى الرأى الأخير يسقط هذا السؤال جملة . وعلى الأول نقول : إن الله تعالى حكمة بالغة فى ذكر الاسراء فى السورة دون المعراج . وذلك أن الله علم أن المشركين والمخالفين سوف ينكرون ذلك كله إذا ما حدثهم به رسول الله عليه السلام ، وسوف يهزؤون برسول الله من أجله . وقد حدث هذا . أما الاسراء فانه يقدر ان يصدق قوله إذا كذبوه بأن يذكر لهم بيت المقدس ، وصفة المسجد الأقصى ، فينتصر عليهم ، وتكون له الحجة . وهذا قد كان . وأما المعراج فبماذا يكذبهم إذا كذبوه ، وبماذا يصدق قوله ؟! فلو نعت لهم السماء وما رأى فيها لما كان فى ذلك مقتنع لهم ، ولا حجة عليهم لأنهم لا يعرفون ما هنالك . فكان من الحكمة البالغة أن يذكر فى سورة الإسراء التى تتلى على المشركين المعاندين الإسراء دون المعراج ، حكمة منه بالغة

على أن الاسراء الى بيت المقدس إنما كان مقدمة المعراج ، وطريقاً إليه ، على القول بأنهما كانا في ليلة واحدة . وقد يكون حينئذ من الجائز المناسب المعهود أن يذكر الاسراء دون المعراج ، لأنه إذا ذكر الاسراء علم أنه يعنى به ما بعده وهو المعراج . ومن أجل ذلك يذكر كثير من المؤلفين المعراج فى باب الاسراء . والقرآن يقول (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا) وهذه الآيات فيما يبدو لنا ، ولمن فكر جيداً ، هى

الآيات التى رآها فى المعراج . فأشار إلى المعراج بما وقع فيه من الآيات والعجائب . وليس بلازم ذكره نصاً . ثم إن المعراج قد ذكر فى سورة النجم كما تقدم . فذكر الاسراء فى سورة ، وذكر المعراج فى سورة أخرى ، وما فى هذا شيء من الغرابة .

وأما قولهم : إن الأحاديث متخالفة . فنقول : إن الاختلاف لم يقع فى أصل المعراج . فإن الروايات كلها مجتمعة على وقوع المعراج ، وإنما كان بعض الاختلاف فى بعض صفاته وهيئاته ، كما ذكرنا . وقد قدمنا فى أحاديث انشقاق القمر وأحاديث الدجال أن كل أمر عظيم ذي بال لابد أن يقع فى صفته وهيئته وشكله اختلاف ، وأنه على قدر عظمه يكون الاختلاف فى ذلك . ولكن ذلك الاختلاف لا يقدح فى وجود ذلك الأمر الذى اختلف في صفاته يقيناً . وقدمنا هنالك أن الاختلاف قد وقع فى صفات الرسول ، والملائكة ، والجنة ، والنار ، وفى الحساب والعقاب ، وفى أعمال الرسول عليه السلام ، وفى سائر عظماء التاريخ ، ولم يدل هذا على أن هؤلاء لم يوجدوا عند أحد من خلق الله . فكذلك أحاديث المعراج لايدل الاختلاف فى بعض صفات المعراج على أن المعراج لم يقع . وهذا ضرورى .

ونحن هنا لا نتعرض للتوفيق بين الروايات نفسها . فان ذلك ليس مما قصدنا له فى هذا الباب . على أن من حاول أن يجمع بين الروايات كلها فى المسائل الكبيرة كالمعراج ، والدجال ، وأحوال الساعة فقد حاول محالا فى رأينا . إذ لابد أن يكثر الدخيل في ذلك

لكثرة التحديث به ، وكثرة روايته ولاشتهاره والعناية به .

وأما قولهم : إنه وقع فى أخبار المعراج أشياء لا يمكن أن تكون صحيحة ، فلا يمكن أن تكون الأخبار إذاً صحيحة . فنقول : هذه الأشياء المذكورة إما أن تكون محالة الحصول ، أو تكون جائزة الحصول . فان كانت محالة الحصول ، كانت أخبارها هي الكذب فقط دون أخبار المعراج . ولا مانع أن يقع فى الحادثة الواحدة صدق وكذب ، ومحال وجائز ، فيكذب الكذب والمحال ، ويصدق الصدق والجائز . وذلك كالأخبار عن حاتم الطائى بالكرم ، وعن عنترة بالشجاعة وعن قيس بن الملوح بالعشق . فان الأخبار عنهم بما اشتهروا به جمعت صدقا وكذباً ، ومحالا وجائزاً . ولكن كذبها لا يقضى بأن يكون صدقها كذبا ، وصدقها لا يقضى بأن يكون كذبها صدقا . فالأخبار عن حاتم بالجود متواترة ، ولكن دخلها مبالغات لا يقبلها العقل ، ولكن يصدق مطلق الجود له . وكذلك الأخبار عن عنترة بن شداد بأنه شجاع متواترة ، ولكن دخلها مبالغات لا يصدقها العقل ، ولكن يصدق مطلق الشجاعة له . وكذلك الأخبار عن قيس بن الملوح متواترة بأنه كان عاشقا ، ولكن دخلها مبالغات لا يصدقها العقل ، ولكن يصدق مطلق العشق له . وكذلك حصل فى أخبار جميع الرجال المشهورين ، وفى الأحداث الكبيرة . فوقع فيها مبالغات لا تصدق . وقد وقع ذلك فى معجزات الأنبياء وكرامات أتباعهم ، وفى أخبار الجنة والنار وما بعد الموت ، وهذا لا يقدح فى الحق منه . ومثله أخبار

المعراج إذا افترضنا أنه وقع فيها مالا يكون وجب رده هو دون أصل المعراج . وهذا واضح . هذا على الفرض الأول . وأما إن افترضنا أن الأشياء المذكورة غير محال حصولها بطلت الشبهة رأساً . فهذه الشبهة لا تقدح فى المعراج على جميع الافتراضات

على أن هذه الأمور المنكرة عندهم قد وقعت فى أخبار الاسراء . فهل يكذبون الاسراء لذلك ، والاسراء مذكور فى القرآن ؟! على أننا نجاوب عن الأمور المذكورة واحداً فواحداً ، لا لأن إشكالها يقدح فى المعراج ، بل لأنها هى فى نفسها مشكلة عند هؤلاء . وكتابنا هذا للمشكلات .

أما رؤيته ﷺ الأنبياء فى بيت المقدس ، ثم رؤيته لهم بعد ذلك فى السماء ، ففى هذا تفاسير كلها صحيحة :

أولها — أن يكون الذى رأى هى الأرواح ، رآها فى بيت المقدس ، ثم عرج بها إلى السموات فرآها هنالك . وقد قدمنا الكلام على الأرواح فى أحاديث عذاب القبر

ثانيها — أن يكون الله خلق له عليه السلام أشخاصهم ، فرآهم فى السماء وفى الأرض لحكمة بالغة .

ثالثها — أن يكونوا مثلوا له تمثيلا . فرآهم وخاطبهم ، وخاطبوه

هذه تفاسير ثلاثة ، وكلها لها نظائر فى فعل الله وفى علوم هذا العصر أيضاً . وليس المعنى فى هذا أن تكون الذات الواحدة فى مكانين فى وقت واحد . لا

وقولهم : كيف يصلون والميت ينقطع عمله كما قال عليه السلام : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله » الحديث . يقال عليه : إن سنة الله المطردة الغالبة أن الانسان إذا مات انقطع عمله كما في الحديث المذكور ولكن الله قد يخلق خوارق : إما معجزات لرسله ، أو كرامات لأوليائه . كما فعل ذلك للأنبياء وللأولياء فى مواضع معلومة . ولكن ذلك لا يتخذ سنة عامة وأمراً مطرداً شأن المعجزات والكرامات والخوارق . فالحديث الذى يخبرنا بانقطاع الأعمال يخبرنا عن السنة العامة فى الأموات . وصلاة الأنبياء ليلة الاسراء والمعراج هى من قسم الخوارق . والخوارق يؤمن بها المؤمنون والكافرون . إلا أن الكافرون يسمون ذلك فلتات الطبيعة ، كما يجعلون مافي الكون من حكمة ونظام من ناموس الطبيعة . وقد كانت ليلة الاسراء والمعراج كلها خوارق وعجائب . وليس ما حصل فيها طبق السنة العامة المطردة ، ولا ريب فى هذا . وقد صح فى الأحاديث المتكاثرة أن بعض الأحجار والاشجار والجماد والحيوان كان يخاطب رسول الله ﷺ ، وكان يعقل عنه . وليس معنى هذا أن هذا سنة لهذه الأشياء ، وإنما ذلك كله خوارق للناموس العام الشائع . فليراع هذا هؤلاء الذين يجعلون صلاة الأنبياء فى ليلة المعراج دليلا على أن الانبياء أحياء حياة مادية كحياتهم قبل أن يموتوا . بل قد يقولون : إن حياة الانبياء ، وتصرفهم فى موتهم أكمل من ذلك فى حال الحياة . وهذا غلط شائع . وإلا فما معنى الموت

حينئذ ؟ ! إنه لا موت على رأيهم . وهذا خلاف الدين والضرورة والاجماع .

وأما إنه رأى النيل والفرات فى السماء وهما نهران فى الأرض ، فقد سلف الكلام على ذلك فى بحث خاص

وأما إنه رأى نسمات الكفار فى السماء والله يقول : (لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة) فيقال : إن الآية فى جانب والحديث فى جانب آخر ، فالآية تعنى أن الكفار لا يدخلون الجنة وقوله بعد ذلك (ولا يدخلون الجنة) كالتفسير لذلك . والحديث دل على أن أرواح الكفار قد يعرج بها إلى السماء حيناً لحكمة ، كما فعل فى المعراج على أنه يجوز أنه مثلت له أرواحهم تمثيلا ، فرأى مثلها لا أعيانها

وأيضاً الآية تعنى أن الكفار فى الشأن الغالب لا يعرجون إلى السماء شأن المؤمنين . فان المؤمنين يعرج بهم حين الموت إلى السماء وأما الكفار فيذهب بأرواحهم إذا ما ماتوا فى أسفل سافلين . هذا هو ما تعنيه الآية ، ولا تنفى أن يذهب بأرواحهم يوماً لحكمة إلى السماء . على أن مثل هذه العبارة قد تعبر عن الرحمة والقبول ، كما يعبر عكسها عن عكس هذا المعنى . فيقال مثلا : هذا دعاء تفتح له أبواب السماء ، وهذا عمل تغلق دونه أبواب السماء . ويراد بالأول أنه دعاء مرضى مقبول ، وبالثانى أنه عمل غير صالح ، فهو مردود . فكذلك قول الله (لا تفتح لهم أبواب السماء) يريد أنهم بعداء مغضوب عليهم

وقد يقول العربى صاحب اللسان « لا تفتح لفلان أبواب الملوك » . ولا يعنى بقوله هذا أنه لا يدخل على الملوك أبداً ، وإنما يعنى أنه ليس بصاحب جاه ولا مقام عند الملوك ، ولا ممن تعظمهم الملوك ، كما يدل عكس العبارة على عكس المعنى . ثم إن الآية تريد أنهم بأجسامهم لا يدخلون فى ملكوت السماء ، وفى حديث المعراج رأى أرواحهم فقط .

وأما قولهم : وهل الأرواح ترى . فيقال فى الأرواح مذهبان : مذهب يقول إنها جواهر ، ومذهب يقول إنها أعراض . فعلى القول الأول ، وهو القول الصحيح ، لا ريب أن الجواهر ترى ، وأنها من مدركات الأبصار . وعلى المذهب الثانى يقال : لا ريب أن الأعراض والمعانى ترى إذا مثلت أجساماً . وقد كانت الملائكة يتمثلون ، وكذلك الجن . ومستحضرو الأرواح الآن من الفرنج وغيرهم يدعون أنهم يرون الأرواح ، وأنها تخرج لهم بصور أناس محسوسين فيحسونها . وهذا يوافق آراء طوائف من علماء الاسلام سلفوا . وعلى كل حال ليس هذا خارجاً عن متناول القدرة الالهية .

وأما قولهم : إن الملائكة شقوا صدره عليه السلام . فنقول : هذا حق لا شىء فيه . والجراحون الآن من الاطباء يعملون عمليات فى الجراحة هى أعظم من هذا .

وأما قولهم : إن الهواء يفقد بعد أميال فوق الأرض ، فلا يمكن أن يعيش أحد فوق منقطع الهواء . فنقول : نحن لا نريد أن نجادل

هؤلاء كما يجادلهم فريق من المؤمنين بتلك الطريقة التى لا نرضاها ، ولا يرضاها المنطق ، وهى أن نجتهد بأن نقيم لهم الدلائل على أن ذلك الأمر جار على ناموس الطبيعة المطردة ، وأنه مألوف فى الخلق معروف ، وليس غريباً فى بابه . فاننا إذا مافعلنا ذلك أخرجنا ذلك الأمر عن أن يكون معجزاً ، وأن يكون من خصائص النبوة . وهذا صنع من لايقر بالاله القادر الفعال ، وصنع من ينكر الرسالة والمعجزات والخوارق . وهذا هو أصل الدين وعماده .

وإنما الطريقة التى نرضاها ، ويرضاها المنطق فى إثبات هـذه الحقائق أن نقول لمن يخاطبنا فى ذلك : إما أن تكون مؤمناً بالله وبالرسالة والرسل ، أو تكون منكراً ذلك ، غير معترف بشىء منه . فان كنت الأول لم يكن علينا إلا أن نبين لك أن هذا الأمر قد جاء بسند صحيح عن صاحب الرسالة ، وهذا الأمر كاف بالاثبات لأن الأمر جائز ، وإنما يتوقف إثباته على ثبوت سنده . وإن كنت الآخر قلنا لك : أنت إلى إقامة الدلائل على الاله والرسول أحوج منك إلى إثبات المعراج ونحوه من جزئيات الدين . هكذا يكون أسلوب الجدل والرد على المنكر . وليس من الأسلوب الصحيح ، والطريقة المرضية فى البحث أن نجىء من ينكر الله ، وينكر أنبياءه وكتبه ، ونتعب أنفسنا فى سبيل أن نقنعهم بأن المعراج ونحوه ليس خارجاً عن ناموس الطبيعة ، ولا مما يختص به صاحب الرسالة ، ولا مما يدل على العناية والاصطفاء . فاننا فى مثل هـذا لانصل إلى النتيجة التى نحاول

الوصول إليها ، وهى أن نثبت أن محمداً رسول الله ، بل نحن نسعى فى صد الناس عن الإيمان بذلك ، لأننا إذا أقنعنا ذلك المخالف بأن المعراج ليس مما يخص رسول الله بل يكون ذلك له ولغيره على حسب نواميس فى الطبيعة نزعنا الاعجاز من ذلك . وهل يكون الرسول رسولا إلا بالمعجزات ؟ !

ومن العبث واللعب فى البحث أن نذهب لنقيم الدلائل على المعراج لإنسان يجهل قدرة الله ، أو يجهل الله ذاته ، وينكر المعجزات والآيات وجميع الخوارق ، ولا نبدؤه باثبات هذه الامور قبل كل شيء ، بل يلزم أن نبدأه باقامة الدلائل على الله وعلى قدرته ، وأنه يفعل مايشاء . ولكن أساليب البحث فى هذا العصر عقيمة غير منتجة . والناس متقدمون فى عصرنا فى الحسيات والتجريبيات ، متأخرون فى العقليات والنظريات . وليس بين الأمرين تلازم . فان الأطفال والصناع يحذقون الأمور الراجعة إلى التجارب ، ولكنهم يجهلون الأمور الراجعة إلى العقل والنظر . بل الأمور التجريبية قد يعرفها لحيوان الأعجم ويتقنها ، ولكن لايعرف شيئاً من العقليات . وأنت إذا ماتدبرت هذه المناقشات والمساجلات التى تتردد فى الجرائد والمجلات والكتب الحديثة رأيت مارأينا فى أهل هذا العصر من تأخر الأساليب المنطقية الجدلية .

هذه هى الطريقة التى نرضاها ويرضاها المنطق . وإلا لو أردنا الطريقة التى لانرضاها ولا يرضاها المنطق لقلنا لهؤلاء المخالفين

ياسبحان الله ! هؤلاء الفرنج يحاولون الطلوع إلى القمر والمريخ ، ويأملون أن يكون ذلك يوماً ، ويصدقهم هؤلاء فى هذا الأمل ، ولا يعدونه محالا على قدرتهم . فكيف لايسلمون مثله لقدرة الله جلت قدرته ؟ ! أليس هذا هو النقص فى التفكير الذي ليس بعده نقص ! ؟ أوليس الذى خلق الهواء وخلق الانسان ، وجعله محتاجاً إلى الهواء والنفس قادراً أن يجعل عباده مستغنين عن الهواء عائشين بدونه ؟ ! أو ليس الذي جعل الأجنة فى بطون الحاملات يعيشون بدون هواء ولا نفس ، والذى جعل الأسماك تعيش فى بطون البحار ولا تحتاج إلى مايحتاج إليه حيوان البر من الهواء والتنفس قادراً أن يجعل من يشاء من عباده غنياً عن ذلك ؟ ! أوليس الهواء وما فوق الهواء خاضعاً لله تعالى ، والله قادر أن ينقله من مكان إلى مكان حسب مايريد ، وحسب مايشاء ؟ ! وهذا الانسان الضعيف ، يتلاعب الآن بالهواء ، ويسخره ، فيسوقه من مكان إلى مكان ، ويفرغ منه ما يشاء تفريغه من الأماكن ، ويجذبه إلى ما يشاء ، فيجذبه إلى الغواصات والغواصين فى أعماق البحار . فكيف يعجز الله الخالق لكل شىء عما استطاع الانسان الضعيف الذى لا يعيش من ضعفه بدون الهواء ؟ !

إن فقراء الهند يروضون أنفسهم مدة فيأتون بالعجائب ، ويستطيعون الحياة بدون الهواء والتنفس أزماناً . وقد روت عنهم الصحف أن الواحد من هؤلاء يلقى فى قارورة وضع فيها زيت ، فيقفل عليه ويحكم القفل ، بحيث لايجد الهواء إليه سبيلا ، فيبقى كذلك أسابيع

ثم يخرج حياً . وقد روت إحدى الجرائد المصرية ، وروى الشيخ رشيد رضا فى وحيه أن واحداً من هؤلاء سدت جميع المنافذ فى جسمه التى يدخل منها الهواء بالقطن ، ثم وضع فى صندوق وقفل وأحكم قفله ، ثم دفن فى الأرض فظل أربعين يوماً كذلك ، ثم أخرج حياً . عمل هذا وأدخل وأخرج على أعين طائفة من الزعماء والأطباء . فكيف يعجز الله عن مثله ؟ !

وأما قولهم : إن السموات ليست لها أبواب ، فهو قول مجرد ، ودعوى لا سند عليها . ومن أين علموا أن السموات ليست لها أبواب ولا مفاتيح (وما يعلم جنود ربك إلا هو) (ويخلق ما لا تعلمون) . وفى القرآن (لا تفتح لهم أبواب السماء) وما ادعى أحد من علماء الشرق ولا الغرب أنه أحاط بكل شىء خلقه الله علماً . وهؤلاء إذا كانوا يطلبون منا أن نترك نصوص الدين بلا دليل ، فكيف نقبل قولهم هم بلا دليل؟! على أنه لو صح ما قالوا لما كان هذا مخالفاً له . فان قوله : فتحت أبواب السماء ، وأمثال هذا القول ، ليس صريحاً باثبات ما نفوه . فانه يقال : اللهم افتح لنا أبواب رحمتك . اللهم افتح لنا أبواب فضلك . ولا يراد بأمثال ذلك الأبواب حقيقه ولا الفتح حقيقة

وأما قولهم : إن السموات لا تقبل الخرق والالتئام ، فهو وهم مجرد مالهم عليه من سلطان . على أنه لم يكن فى أخبار المعراج خرق ولا التئام ، وإنما فيها فتح . وقد قدمنا الكلام فى الفتح

وأما قولهم : إن الأخبار تدل على أن السموات سبع ، وأنها غير

الافلاك المعروفة لأهل النجوم والفلك . فيقال : عدد السموات مذكور في القرآن الكريم ، وفى الأحاديث المتواترة . ليس ذلك من فرائد حديث المعراج . ولا شك فى وجود سموات سبع عند أحد من العلماء والخلاف إنما وقع فى تعيين هذه السموات ، لا فى وجودها . وأحاديث المعراج لم تعينه . فان كان ما يعتقده الجمهور فى السموات السبع باطلا ، لم يكن غيره باطلا . وما قال عالم إنه علم كل شيء فى الوجود . والعلماء الآن متفقون على أن الفضاء لا نهاية له ، ولا حد له . وإذا كان ذلك كذلك فالمخلوقات في هذا الفضاء الذي لا يحد لا يقدر أحد على إدراكها ورؤيتها كلها . فان التلسكوبات يرى بها إلى حد محدود ، ثم ينتهى الادراك بها . فمن أنكر السموات السبع على مقتضى الأحاديث لأن التلسكوب لم يرها فقد جهل هذه المقدمات ، وجهل ماعرف ، وأنكر ما اعترف به . أى إننا نقول : إن السموات السبع هى غير النجوم التى رآها الناس اليوم ، والتى عرفها الفلكيون إلى اليوم ، وهى سموات طباق سبع ، بعيدة جداً في الفضاء الذى لا نهاية له ولا حد له باعتراف جميع الفلاسفة الحاضرين والماضين . فالانسان إلى الآن لم ير هذه السموات ببصره المجرد ، ولا بآلاته المقربة المعظمة ، وليس له أن ينكر ما لم يره لأنه لم يره ، وقد اعترف أن الفضاء لانهاية له

وأما قولهم : كيف يقطع هذه المسافات فى ليلة واحدة . فنقول : هذا راجع الى قدرة الله ، والى الايمان به . فالذى ينكر المعراج لذلك يكون منكراً الله ومنكراً قدرته . وهذا أحسن طريقة فى إقناعه أن

يقام له البرهان على الاله القادر الذى يفعل ما يشاء . فاذا عرف الله وقدرته سهل عليه الجواب عن هذا ، وسهل عليه معرفته . أما ان نذهب لنقيم له الدليل على إمكان أن يقطع المسافات الطويلة فى ليلة واحدة ، وهو ينكر الله ، وينكر قدرته فما لا يجوز المنطق الذهاب إليه . وما يكون المعراج والايمان به فى جانب الله والايمان به ! ! وأما إذا كان هذا المعارض بهذه الحجة مؤمناً بالله ، وبأنه خالق السموات والأرض والوجود كله ، وخالق المسافات والأبعاد والقوى فان يصعب عليه الايمان بأن يعرج برسوله إلى أبعد ما يريد ، ويرجعه فى ليلة واحدة بلا عجز ولا تعب . وليس عروجه برسوله فى ليلة واحدة بأشق على قدرة الله وأغرب فيها من خلقة الانسان وما أودع فيه . وليس أعجب من خلقه لعينه الباصرة التى يرى بها على حقارتها هذه المرئيات من الأجرام السماوية ، وبيننا وبينها مئات الملايين من الأميال فى أقل من ثانية . وليس أعجب من أن خلق لنا من هذه النطفة البيضاء السائلة ، ومن الخبز الذى نأكله ، هذه العقول الجبارة ، والعلوم التى لا تنتهى ، والحواس العجيبة . ولكن الشىء اذا كثرت رؤيته نزعت منه العبرة

ولو فرضنا أن الانسان لم تخلق له حاسة البصر ، فحدث عنها وعن بلوغها المسافات الطويلة ، وإدراكها فى أقل من ثانية ما لا ندركه آلاف الأعوام سيراً لعد هذا ضرباً من الخيال والوهم ، ولعده أغرب من المعراج وقصته . ولو أن إنساناً خلق طوراً واحداً كامل الخلق كما خلق جدنا آدم ، فرأى الناس الرجال البالغين الكاملين ، والنساء البارعات

جمالا ، اللاتى لا تشبع منها العين والبصر ، وحدث عن مبدإهؤلاء ، وعن أصلهم ، وأنهم كانوا يوماً من الدهر نطفة من هذا الماء الدافق الأبيض المستقذر ، أو تراباً ، لما أمكن أن يصدق ذلك . ولو قيل له هذا ، وقيل له : إن واحداً من هؤلاء الرجال الذين تراهم عرج به ليلة إلى هذه الشمس ، أو إلى أرفع منها ، ثم نزل إلى الأرض فى ليلة لعد هذا أقرب من الأول ، ولآمن بهذا العروج قبل أن يؤمن بأصل الانسان وبدايته إن أمكن أن يؤمن . ولو أن أعقل العقلاء لم ير الشمس ولا القمر ولا الاجرام العلوية ، ولم يبرز إلى السماء ، فقيل له : إن فوق هذا البيت الذي أنت فيه سرجاً عظيمة ، أكبر من الأرض أكثر من مليون مرة ، معلقة فى الهواء ، لا يحملها شيء ولا تقع لعد هذا الكلام من الخرافات ، ولعد هذا أغرب من المعراج في القدرة والندرة ، ولكننا الآن نرى الشمس والقمر وسائر الأفلاك فوقنا فى الهواء ، ولا غرابة ولا عبرة . ولو حدث عن الجاذبية التى يعتمد عليها المعطلة فى تعطيلهم ، وحاولنا أن يؤمن بها كما هى لحاولنا شططا .

وفى كل شيء له آية تدل على أنه القادر

على أن هذا الذى أنكروه لأنهم حسبوه بعيداً محالاً ، هم يشاهدون كل يوم مثله وأعجب . فان بين الأرض والشمس مسافة ثلاثة وتسعين مليون ميل ، وهذه أنوارها تصل إلينا فى أقل من لحظة . وإن النور يقطع فى الثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلو متر

وهذا النور الذى يقطع المسافات فى هـذه السرعة ، قد حققوا أخيراً أنه مادة أى جوهر لا عرض . فاذا كان واهب الوجود وهب النور وهو جماد هذه السرعة والقوة ، فكيف يعجز أو يبخل أن يعطيها أفضل خلقه ؟ ! وإذا كان أعطاها هـذا النور الحسي الذى يهدى الأبصار ، فكيف لا يعطيها ذلك النور ﷺ الذى يهدي البصائر ؟ ! وشتان ما بين النورين على أن ما أحدث التلغراف والراديو من نقل الأصوات والكلام يقرب لهؤلاء المعراج ، ويقطع عليهم التعلل بالمسافات والأبعاد

وأخيراً فأغلب شبهات المعراج هي شبهات فى الحقيقة على القدرة وهى لا تروج إلا عند من ينكر الإله القادر الفعال لما يشاء . وقد أصبح الايمان اليوم بالقادر الفعال من الضرورات الأولية لاينازع في ذلك إلا قوم يعشقون الإلحاد والكفر لذاتهما لأن أنفسهم تشتهيه ، لا لأن لديهم عليه براهين ومحاولتنا أن يؤمن هذا الصنف بالمعراج والاسراء وبالاله أيضاً عبث

ولو أن إنساناً ـ وإن خلق غبيا ـ فكر فى أحقر عضو فيه ، وفكر فيما أودع من الحكم والاحكام والاسرار فيه ، وكيف جاء وفق المصلحة والمنفعة والحكمة ، وكيف كان فى هذا المكان من البدن ، وكيف كان بهذا القدر وهذا الشكل وبهذا اللون والسعة . وفكر بعد في أصله ومادته التى برىء منها ، وكيف كان فى تنقله من طور إلى طور ، ومن خلق إلى خلق ، وكيف كان ينمو باتزان وتناسب فى جميع أعضائه ،

وجميع جوانبه ، وعلى قدر موزون . ثم فكر فيما خلق حوله ليحفظه من التلف والضياع والأضرار المحدقة بالانسان ، وكيف بقى كذلك مرعياً محفوظاً يؤدى مهمته ووظيفته أحسن تأدية . وفكر بعد ذلك فى الشأن الذى خلق لأجله ، وفى الغاية منه . ثم فكر لو أنه كان بعكس ذلك و بعكس ما كان وكيف يكون حينئذ : أقول لو أن إنساناً ، وإن كبر نصيبه من الغباوة والبلادة ، فكر فى ذلك سواء أكان جاهلا أم عالماً ، وسواء أكان فيلسوفاً أم أمياً ، لكفاه ذلك دليلا على القادر المختار الذى لا يؤوده شىء ، ولا يغلبه شىء ، ولرأى ذلك أغرب من جميع الخوارق من معراج وإسراء وغير ذلك . ولكن كما قلنا إذا كثرت رؤية شىء نزعت منه العبرة . على أن ما أحدث فى هذا العصر من المخترعات والمبتدعات كاد يمحو حروف المستحيل ومتصرفاته من قائمة الموجودات . ولو أن ما اخترع فى هذا العصر من البدع الصناعية الأوربية جاء فى القرآن أو غيره من كتب الله لقال الجاهلون إن هذا مستحيل ، ولكذبوه أعظم من تكذيبهم للمعراج والاسراء ، ولبدأوا بانكاره وجحوده

ونحن كما قلنا لا نرى ما يراه بعض الناس فى الرد على الجاحدين بأن نجتهد في أن نقيم لهم الدليل على أن الأمر الذى خالفونا فيه جار على نواميس الطبيعة وعادتها ليس خارقاً ولا معجزاً . فهذا الرأى كما قلنا عقيم الانتاج لا ينصر إيماناً ، ولا يكسر كفراناً ، والطريقة الجيدة فى ذلك أن نقيم لهم الدليل قبل كل شىء على الاله الذى يقول للشىء

كن فيكون ، الذى لا يغالب ولا يمانع . فاذا ما اعتقدوا به لم يجدوا مانعاً من أن يؤمنوا بالدين ، وماجاء به الدين من أمور تحار فيها العقول الجبارة . وإلا فاننا إذا ذهبنا وأقمنا لهم الدليل على أن هذا الأمر الذى جاء به الدين ، وجاء به الرسول ليس معجزاً بل هو أمر معتاد قد يكون لغير الأنبياء ، فهل يكون ذلك برهاناً عندهم على الايمان وعلى الرسالة ؟ اللهم لا . وبهذا فلتقاوم كل شبهة تعترضك أيها القارىء دون الايمان والاطمئنان بالدين ، وما أخبر به الدين . ولتعلم أن الأديان كلها مبنية على الخوارق والايمان بالخوارق ، فهي كلها تحدث أن الانسان ـ أشرف المخلوقات ـ كان سلسلة خوارق وعجائب . فأوله خلقة آدم وحواء ، وهو خارق الناموس العام . وآخره بعث الانسان بعد الموت ، ثم خلوده فى الجنة أو النار وبقاؤه كذلك لا يموت ولا يحيى . وهذا كله خارق ونادر . فلا إيمان إلا بالايمان بالخوارق ، وبأن الله يفعل ما يشاء ويختار . ومن العجب أن يكون للملوك ، ومن دون الملوك ، أحكام استثنائية وخوارق فى أفعالهم ، ولا يكون ذلك لملك الملوك الله رب العالمين .

مخاطبة الاموات

روى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ أمر بأربعة وعشرين صنديداً من صناديد قريش يوم بدر ، فقذفوا فى طَوِىٍّ من أطواء بدر وقام على الطوى ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم « أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله فانا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ماوعدكم

ربكم حقاً » . فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ماتكلم من أجساد لاأرواح لها . فقال رسول الله « والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع منهم لما أقول »

يستدل فريق نشأ فى حجر البدعة والخرافة بهذه القصة على بدعهم التى ابتدعوها ، وعلى لجوئهم إلى الموتى رغباً ورهباً ، وعلى سائر مايأتونه عند القبور من محدثات ينبو عنها الذوق والعقل والدين . ويقولون : إذا كان رسول الله ﷺ دعا الموتى الكافرين فكيف لاندعو الموتى المؤمنين ؟ ! وإذا كانوا يسمعون فمن يعارض في دعاء من يسمعون ؟ ! وقد يرشحون قولهم هذا باحضار الأرواح ومخاطبتها . وعلى ذلك ارتكبوا ما ارتكبوا من هذه الخرافات لدى الأولياء وغير الأولياء من أبواب وجدر ، حتى ضج العقلاء والحريصون على الدين ، وعلى عقول الأمة وسمعتها من ذلك . وفعلوا مافعلوا من أوهام سوداء سودت وجه الدين والمتدينين ، وجعلت للأعداء مقالا ومقدحاً فى دين التوحيد ودين العقل والذوق . ولهذه البدع — كما يعلم المفكرون — أثر فى إلحاد من يلحدون من شباب الإسلام ، وخروج من يخرجون على الإسلام من أبناء الإسلام ، أنفة منهم وإباء أن يدينوا ديناً يدعو إلى جعل الموتى المفزع والملتجأ ، وهم لابصيرة لهم بالدين ، ولا يعرفون الدين إلا أنه مايمثله هؤلاء الطائفون بالأضرحة من العامة وأشباههم .

ونحن نقول : نعلم بالضرورة والاستقراء التام والإجماع السلبى أن رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين ومن بعدهم من أئمة الدين ما كانوا

يدعون الموتى ، ولا يسألونهم ، ولا يرغبون فيهم ، ولا يفزعون إليهم إذا حزبهم أمر . ولا كان أحد منهم يلجأ إلى رسول الله ﷺ ولا إلى غير رسول الله ليكشف مابه من بلاء ، أو ليزيد مابه من نعماء ، أو ليلهمه رشداً ، أو ليدفع عنه كبداً . ولا كان أحد منهم يفعل مايفعله هؤلاء لدى المقامات من الطواف ، والالتزام ، والتقبيل ، والخضوع ، والخشوع ، والتوسل ، والضراعة ، والمسكنة . بل نعلم أن القرآن والسنة جاءا لإبطال ذلك كله ، ومحوه من الوجود ، وإلحاقه بالجاهلية المحطمة المبادة ، كما أنه لايوجد فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله عليه السلام مايجيز ذلك ، أو يحله ، لا إشارة ولا تصريحاً . بل القرآن مملوء من النهي عن ذلك ، والزجر عن فعله ، ولا نشك أنه لو كان دعاء الموتى والتوسل بهم ديناً يرضاه الله ، أو يرضاه رسول الله ﷺ لما أعرض عنه صحابة رسول الله ومن بعدهم من الأئمة ، فيهتدى إليه المتأخرون المقصرون فى كل خير . ومن زعم ذلك فقد اتهم المسلمين الأوائل وقدح فى علمهم ودينهم .

ولقد يلزمنا العيب والشُّبة إذا حاولنا أن نقيم الدلائل على بطلان التوسل العامى الحاضر . وقد نهجو أنفسنا بذلك ، ونكون كمن قام يدلل على أن الشمس أضوأ من القمر ، وأن الناتج من ضرب الواحد فى خمسة يساوى خمسة . إن حالنا كحال هذا الذى يفعل ذلك حينئذ . ولكن لما فتن الناس بهذا التوسل ، ونشأ عليه الصغير والكبير حسبوه من الدين ومن الايمان . والاعتياد تأثير فعال فى العقيدة .

وإلا فمن ينازع فى أن الاستغاثة بالموتى رجاء السعادة والمدد جهل وضلال .
ومن يقول إن دين التوحيد والتنزيه يجوز هـذه القاذورات التى تؤتى فى الموالد ، وفى أحضان المقامات ، على حساب الدين وحساب التدين وأى إنسان رزق ذرة من عقل وإنصاف يقول إن الدين الاسلامى يجوز لمعتنقيه أن يسألوا الموتى التوظيف والتزويج والشهادات وفك المغلق من المشكلات ، من دينيات ودنيويات ، كما نشاهد ذلك كله عند هؤلاء الصالحين رضى الله عنهم ؟! ومن يقول من المسلمين إن من الإسلام أن يقف المسلم الموحد أمام الميت المدفون فى التراب وتحت الرمال مادًا يديه ، خاشع القلب ، ساكن الأعضاء ، ممتلئًا رغبةً ورهبةً ، ممتلئًا خشوعًا وخضوعًا ، قائلاً : (يا فلان مدد) . (يا فلانة مدد) ؟! اللهم إن الدين يبرأ من ذلك كله ويأباه . وإن المسلمين يبرءون من ذلك إلى الله . واحسرة على المسلمين ، وواحسرة على الإسلام

إنه لم يبق عاقل من عقلاء المسلمين الذين يقام لهم وزن فى العلم والأمة يبيح هذا التوسل الذى ينتحله طوائف العامة ، أو يبيح هذه الوثنية الشائعة . وإننا نحمد الله أن أخذت تتقهقر هذه الخرافة فى الأيام الأخيرة ، ولم يبق لها من ولى ولا نصير غير جماعات لا يؤبه لهم ، والحمد لله على ذلك .

إننا قد ذكرنا فى سائر كتبنا البراهين العقلية والنقلية على بطلان هذا التوسل ، وذكرنا هنالك من حجج القرآن والحديث

والإجماع والقياس ما يقنع بعضه المنصف بأن هذا التوسل ليس من الدين فى شىء

والذى نقوله الآن هو أن حديث خطاب رسول الله لكفار قريش الذين رموا فى الطوى لا يدل على أكثر من وجود العالم الروحانى ، وأن لهذا العالم استقلالا عن العالم الجسمانى ، وأنه قد يدرك الخطاب والنداء . ومستحضرو الأرواح الآن يقررون هذا . ولكن لا يدل لهؤلاء المتوسلين وجود العالم الروحانى وسماعه بعض الأوقات على أنه يجوز الاستعانة به ، والدعاء له . وذلك أنه لا يلزم وجود عالم الأرواح أن يكون سامعاً من ناداه ، ولا يلزم إذا سمع أن يكون قادراً على ما يطلب منه ، ولا يلزم إذا قدر عليه أن يكون مأذوناً له باعطائه من طلبه ، ومأذوناً لنا بأن نطلبه ، ولا يلزم من ذلك كله أن يكون ذلك مباحاً جائزاً ، ولا يلزم بعد ذلك كله ألا يكون منع لأنه يترتب عليه مفاسد دينية أو دنيوية ، أو يترتب عليه أن ينحل الأموات فوق ماهم له أهل ، كما هو الواقع المشهود . فاننا نرى المتوسلين فى عصرنا يسألون الأموات أموراً لا يقدرون عليها وهم أحياء ، ولا يقدر عليها إلا الله سبحانه ، ويقدسونهم ويعظمونهم ويهابونهم ويرجونهم . كل ذلك بأبلغ مما يكون منهم لله وهم بين يديه فى الصلاة والمناجاة . ولا شك أن هذا خالص العبادة ولبها ، لا يجوز صرفه لمخلوق سواء أكان حياً أم ميتاً ، وسواء أكان حاضراً أم غائباً . ويدلك على ما نقول أنه لا تجوز لنا دعوة الملائكة ولا دعوة الجن مطلقاً . والملائكة والجن أحياء ، وهم أقدر من

الانسان ومن روح الانسان . وما دعاهم أحد من المسلمين ولا العاقلين . ولم يفهم الصحابة الذين سمعوا رسول الله صلى عليه وسلم ينادي كفار قريش وهم أموات أن ذلك دليل على التوسل بالموتى . ولهذا لم يتوسل أحد منهم برسول الله بعد موته ، ولم يتوسل أحد من الأئمة الذين رووا هذه الأحاديث وحذقوها بمخلوق ميت . وهذا اجماع سابي لا يدفع

ولو كان الدعاء يلازم التوسل لجاز التوسل بالأموات الكافرين استدلالا بمناداة رسول الله ﷺ لهؤلاء الكافرين الذين رموا في الطوى . ومن يجوز هذا من العاقلين . ومستحضروا الأرواح — وهؤلاء يحتجون بما يقولون — يقولون إن الأرواح مقيدة بأحكام لا يمكن أن تخرج عنها ، وإنها لا يؤذن لها بأن تفعل كل ما تقدر عليه ، وأن تجاوب كل من سألها ، وإنه قد يكون من العدوان عليها ، والايذاء لها ، أن تنادى وأن تسأل لأنها مشغولة بما هنالك عما هنا

ويدل على أن دعوة الأرواح لا تجوز — ولو كانت قادرة وفاعلة — أن مستحضري الأرواح يقولون إنهم لا يقدرون على أن يستحضروا الأرواح القوية العظيمة فلا يقدرون على استحضار أرواح الأنبياء والملائكة . فلماذا هذا ؟ ! ويقولون : إنه ليس كل أحد صالحاً لدعوة الأرواح واستحضارها .

والذى نراه نحن أن هذا الذى يكلم دعاة الأرواح غالباً هم شياطين مضلون لا أرواح من أرادوا مخاطبتهم . وهذا بين لمن تدبر ، وهو يفيدنا فائدتين : إحداهما وجود عالم الأرواح الشريرة وهم الشياطين

تصديقاً للأديان ، وتكذيباً للجاحدين الملحدين . وثانى الفائدتين أن نعلم أن دعوة الأرواح واستحضارها ضلال . ولهذا تجاوب الشياطين ، والشياطين مضلون لا يريدون إلا الإفساد

ثم ألا يكفى هؤلاء علماً ببطلان دعواهم ودعائهم أنهم مهما دعوا وألحوا فى الدعاء لا يجابوا ولا يُسمعوا ؟ ! (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ، فان فعلت فانك إذاً لمن الظالمين) ، (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون) . أو ألا يكفيهم أيضاً دليلا على بطلان توسلهم ما لازمه من الضلالات والمنكرات باعتراف الجميع . ولا ينتج الشر إلا الشر

على أن الدعوى التى ادعوها فى جانب ، والدليل الذي جعلوه برهاناً على دعواهم فى جانب آخر . وذلك أن دعواهم هى أن سؤال الموتى ، ورجاءهم ، والفزع إليهم ، وما مع ذلك من البدع ، دين وحق والذى استدلوا به على هذه الدعوى ليس فيه غير أنهم قد يسمعون بعض الأحايين ، وأن أرواحهم موجودة . بل فى الحديث نفسه ما يرد على الدعوى . وذلك أنه يقول : إنهم ليسمعون ، ولكنهم لا يجيبون . ومن لا يجيب كيف يدعى لو يتدبرون ؟ ! .

والكلمة الفاصلة فى هذا الحديث : أن الله تعالى جعل فى أولئك الكفار القدرة على السماع بأن رد إليهم أرواحهم فى تلك الساعة ليسمعوا نداء رسول الله توبيخاً وتحسيراً ونقمة . ولله أن يخرق لرسوله ما يشاء ، لا معقب لحكمه ، ولا مانع لما أراد . وقد روى

البخارى فى صحيحه عن قتادة وهو إمام من أئمة التابعين الكبار « أن الله تعالى أحياهم له فى تلك الساعة توبيخاً لهم وإيلاماً وحسرة .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يخاطب كثيراً من الأحجار والحيوانات فتسمع منه وتجاوبه ، فهل يدل هذا الخطاب والسماع على أن تلك تسمع دائماً ، وعلى أنه يجوز التوسل بها واستغاثتها ؟ ! ولوضوح هذا عند الصحابة رضوان الله عليهم ، أنكرت عائشة رضى الله عنها حديث مخاطبة الأموات ، ووهّمت راويه وهو الثقة الثبت ، واستدلت بقوله تعالى : (فانك لا تسمع الموتى) رواه عنها البخارى . وما أنكر الصحابة ولا المسلمون هذا الاستدلال عليها ولا هذه الحجة . وقل لى بربك لو كان دعاء الموتى فى ذلك العصر معروفاً مألوفاً ، فهل يمكن أن يخفى على عائشة رضى الله عنها ، أو يخفى على الصحابة والتابعين أن يردوا عليها بذلك ؟ ! الحق إن الأمر واضح

الفتن من قبل المشرق

عن عبد الله بن عمر أن رسول الله قام إلى جنب المنبر فقال : « الفتنة ها هنا . الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان » أو قال : « قرن الشمس » وعنه أيضاً أنه سمع النبى وهو مستقبل المشرق يقول : « ألا إن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان » رواهما البخارى ومسلم . وعنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم بارك لنا فى شأمنا . اللهم بارك لنا فى يمننا » قالوا : يا رسول الله وفى نجدنا . قال : « اللهم بارك لنا

فى شأمنا . اللهم بارك لنا فى يمننا » قالوا : وفى نجدنا يارسول الله . فأظنه . قال فى الثالثة : « هناك الزلازل والفتن وبها يطلع قرن الشيطان » رواه البخارى . وروى مسلم عن سالم بن عبد الله بن عمر أنه قال : ياأهل العراق ما أسألكم عن الصغيرة وما أركبكم للكبيرة . سمعت أبى عبد الله ابن عمر يقول سمعت رسول الله يقول : « إن الفتنة تجيء من ها هنا » وأومأ بيده نحو المشرق « حيث يطلع قرن الشيطان » وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض ، وإنما قتل موسى الذى قتل من آل فرعون خطأ ، فقال الله عز وجل له : (وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتوناً)

يعتمد بعض ذوى الأغراض والأهواء ممن قل نصيبهم من المعرفة والانصاف على هـذه الأخبار ، فيقدح فى الدعوة السلفية التى يقوم على إنمائها وإعلائها اليوم ، ويدأب فى نشرها وتوسيع نطاقها

وقد حسب هؤلاء وأظهروا للناس أن هذه الأخبار تشير بالفتن والزلازل إلى هذه الدعوة التى تقول : يجب أن يرجع الخلق كافة إلى الخالق وحده ، وألا يعتمدوا على سواه ، لا على نبى ولا من دونه ، ولا يأخذوا إلا بالأسباب العادية المشروعة ، وبعد ذلك يرجعون إلى الله ، فلا يدعون أحداً . والتي تقول : إنه ليس وراء الله للمرء مذهب . وإنه يلزم المسلمين عموماً أن يكونوا كما كان رسول الله ، وكما كان صحابته ومن تبعهم باحسان بلا زيادة ولا نقصان ، ولا اختراع ولا ابتداع . وإنه يجب أن يقف المسلمون حيث وقف القرآن ، وحيث وقفت

السنة ، اعتقاداً وعملا ، بلا تجاوز ولا مغالاة ولا إهمال . وإنه لا بد أن يقيم المسلمون حدود الاسلام وأحكامه وعقوباته وإن غضب الشرق والغرب ، وإن غضب الناس أجمعون ، أو ترك الناس ذلك أجمعون . وإن الاسلام لا يمكن أن يسترجع سالف مجده ، وأن ينهض النهوض المرموق إلا إذا عمل المسلمون بكتابهم وبسنة رسولهم .

نعم حسب هؤلاء وأوهموا بعض الأغرار أن هذه الأحاديث النبوية تشير إلى ذم هذه الطائفة وإلى ذم إصلاحها الذى جاءت به ، والذى شكرها العاقلون عليه كافة وترنموا بمدحه وإطرائه فى شرقها وغربها .

ونحن هنا نذكر ما ذكره العلماء شراح الأحاديث فى هذه الأحاديث ، وما فسروها به ، ليبصر الحق مريدوه . وما علينا بعد ذلك أن يعاند معاند ، أو يكابر مكابر ، أو يغضب غاضب . ولنقتصر على ما ذكره أشهر شراح الحديث فى شرح أشهر كتاب حديثى وأصحه وهو « فتح الباري شرح صحيح البخارى » للحافظ ابن حجر العسقلانى قاضى قضاة مصر في عصره ، وهو منقطع النظير فى فنون الحديث وروايته فى زمنه . ولم يشرح البخارى فيما نعلم مثله . ولم يأت بعده حسب معرفتنا من يجاريه أو يدانيه فى علم الرواية . قال فى الجزء السادس صفحة ٢٢٠ بعد قوله رأس الكفر نحو المشرق : « وفى ذلك إشارة إلى شدة كفر المجوس . لأن مملكة الفرس ، ومن أطاعهم من العرب ، كانت من جهة المشرق بالنسبة إلى المدينة ، وكانوا فى غاية القوة

والتكبر والتجبر ، حتى مزق ملكهم كتاب النبي كما سيأتي في موضعه . واستمرت الفتن من قبل المشرق كما سيأتي بيانه واضحاً في الفتن » . ثم قال في كتاب الفتن صفحة ١٠ الجزء الثالث عشر بعد حديث إني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر « وإنما اختصت المدينة بذلك لأن قتل عثمان رضي الله عنه كان بها ، ثم انتشرت الفتن في البلاد بعد ذلك ، فالقتال بالجمل وبصفين كان بسبب قتل عثمان ، والقتال بالنهروان كان بسبب التحكيم بصفين ، وكل قتال وقع في ذلك العصر إنما تولد عن شيء من ذلك أو عن شيء تولد منه . ثم إن قتل عثمان كان أشد أسبابه الطعن على أمرائه ثم عليه بتوليته لهم . وأول ما نشأ ذلك من العراق ، وهي من جهة المشرق فلا منافاة بين حديث الباب وبين الحديث الآتي إن الفتن من قبل المشرق » . ثم قال في الجزء الثالث عشر صفحة ٣٦ « كان أهل المشرق يومئذ أهل كفر فأخبر ﷺ أن الفتنة تكون من تلك الناحية ، فكان كما أخبر وأول الفتن كان من قبل المشرق ، فكان ذلك سببا للفرقة بين المسلمين ، وذلك مما يحبه الشيطان ويفرح به . وكذلك البدع نشأت من تلك الجهة . وقال الخطابي : نجد من جهة المشرق ومن كان بالمدينة كان نجده بادية العراق ونواحيها ، وهي مشرق أهل المدينة . وأصل النجد ما ارتفع من الأرض وهي خلاف الغور فانه ما انخفض منها وتهامة كلها من الغور ، ومكة من تهامة . انتهى . وعرف بهذا وهاء ما قاله الداودي : إن نجداً من ناحية العراق ، فانه توهم أن نجداً موضع مخصوص ، وليس كذلك ، بل كل

شيء ارتفع بالنسبة إلى ما يليه يسمى المرتفع نجداً والمنخفض غوراً »
انتهى كلام ابن حجر

ونحن نقول بعد ذلك : إننا إذا طالعنا الخرطة وجدنا العراق شرقاً عن المدينة شمالا ووجدنا بلاد العجم شرقاً شمالاً عن المدينة أيضاً . وإذا ما كلفنا أنفسنا ساعة من الزمن وقرأنا شيئاً من تاريخ الفتن التى وقعت فى صدر الاسلام زمن الخليفتين عثمان وعلى وزمن من بعدهم من الخلفاء والأمراء وجدنا جميع الفتن فى غير نجد ، ليس لنجد منها شيء . وكلها ولد وفرخ فى العراق والشام ومصر وبلاد فارس . وليس هنالك فتنة أعظم من قتل عثمان وعلى وعمر رضى الله عنهم ، وأعظم من القتال بين الامام على ومعاوية ، وبين على والخوارج ، وبين على وعائشة . وليس لنجد من ذلك شيء ولا غمست يدها فى قليل ولا كثير من دمها . وكذلك إذا ما تعقبنا التاريخ من ذلك العصر إلى هذا العصر لم نجد فى نجد من الفتن والزلازل ما وجدناه فى مصر والعراق والشام وسائر البلاد ولا يمكن أن يكابر فى ذلك مكابر .

لنفرض أن الدعوة السلفية الموجودة الآن فى نجد هى ضلال وباطل . وأعاذها الله من ذلك . فهل يمكن أن تكون أحق باسم الفتن والزلازل من الإلحاد والتنصير والفسوق والخلاعة الموجودة فى سائر البلاد الاسلامية اليوم ؟ ! فهل يمكن تنزيل الأحاديث المذكورة على نجد دون هذه البلاد التى انغمست فى هذه الرذائل من قدميها إلى رأسها ؟! وهل يقول ذلك إلا من لم يرزق شيئاً من الانصاف والعدل

ولفظ الفتنة عند ما يطلق يعبر عن الحروب والقتال ونحو ذلك ، ولا يعبر عن الآراء والعقائد الفاسدة . فلو سلمنا أن هذه الأحاديث تعني نجداً وتعني أنها موقع للفتن والحروب ، ولن نسلم ذلك ، لم يدل على أن تلك العقيدة باطلة وضلالة ، وإنما يدل على أنه يحدث فيها أحداث وحروب داخلية ، وهذا لا شك فيه . ونحن لا نخالف أنه قد وجد في نجد حروب بين المسلمين لا يرضاها الله ولا يرضاها دينه ولا يرضاها النجديون أنفسهم ، مثل ما وقع من الدويش وإخوانه حتى قضى جلالة الملك عبد العزيز على ذلك وجذ جذورهم واستأصل شأفتهم . وأى بلاد خلقها الله تسلم من ذلك . ويبين ذلك أنه روى البخارى ومسلم عن أسامة بن زيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أشرف على أطم من آطام المدينة فقال « هل ترون ما أرى » قالوا لا . قال « فانى لأرى الفتنة تقع خلال بيوتكم كوقع القطر » فان كان وجود الفتن فى بلد دليلا على فساد عقيدة ذلك البلد دل هذا الحديث على فساد عقيدة أهل المدينة المنورة

وأيضاً لاشك أنه مامن بلد إلا ويوجد فيها فتن وزلازل وشياطين . فهل يدل ذلك على فساد عقائد الجميع . وقد حدث في سائر البلاد من الأمور القبيحة والعقائد المغضوب عليها ما لم يوجد فى نجد . فهل وجد فى نجد ما وجد فى غيرها من البلاد ، وفيها من ادعى الربوبية وقال لأهلها (أنا ربكم الأعلى) فقالوا له سمعاً وطاعةً وكرامةً .

وأيضاً إن كانت هذه الأخبار دليلا على فساد العقيدة بالجملة

لم تدل على أن ذلك الفساد ، وتلك العقيدة الفاسدة ، لن تزول ولن تفارق أهلها ، وإنما تدل على وجودها بالجملة . ولا نتازع فى هذا . فقد كان أهل نجد مشركين قبل رسول الله عليه السلام كما كان غيرهم . وقد كفر طائفة منهم بعد موته عليه السلام واتبعوا مسيلمة الكذاب . ويبين ذلك أن العقيدة التى ينقم منها هؤلاء هى دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب . وهذه الدعوة ما وجدت فى نجد إلا منذ قرنين تقريباً . وأما قبل ذلك فأهل نجد كانوا كغيرهم يتولون ما تولى سائر الناس ، وهم ذلك الوقت وفى تلك الحال عند هؤلاء مهتدون راشدون ليس عندهم فتن ولا زلازل بل هم موحدون حقاً وراشدون حقا . فهذه الأحاديث ، بعد كل تنازل وتواضع ، لا تدل إلا على أنه يضل منهم فريق . ولا نتازع فى هذا اجمالا . وعلى هؤلاء أن يبرهنوا أن الدعوة الموجودة الآن فى نجد هي ضلال وفتنة ، وأين هم من ذاك ، وأن يبرهنوا أنه ليس ما خالفها من البدع والخرافات ضلالا وخرافة .

وبعد . فقد قال فى القاموس « النجد ما أشرف من الأرض . الجمع أنجد وأنجاد ونجود ونجد . والطريق الواضح المرتفع وما خالف الغور أى تهامة ، وتضم جيمه ، مذكر . أعلاه تهامة واليمن وأسفله العراق والشام وأوله من جهة الحجاز ذات عرق »

ومما يلحق بهذا ما يستدل به بعض الجهلة وهو بعض ما يذكره بعض أهل السيرة — إن صحت الرواية — أن المشركين لما اجتمعوا فى دار الندوة للتآمر فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى القضاء عليه

ليخلصوا من دعوته ، جاءهم الشيطان فى هيئة شيخ وقور تقي ، وادعى لهم أنه من أهل نجد جاء ليبدى رأيه فى هذه المشكلة التى شغلت رؤوس قريش ، وهى مشكلة محمد عليه السلام ودعوته ، فرحبوا به وأدخلوه معهم ، وهم لا يدخلون في مثل هذه الحال طبعا إلا من يظنونه من ذوى الدهاء والرأى والحنكة ، فأخذوا يديرون الآراء ، والشيخ النجدى - كما زعم - يرجعها عليهم رأيا رأيا مبيّنا لهم ضعفها وسخفها ، إلى أن أقرّهم الرأى الأخير وجوّده ، وهو أن يأتوا من كل أسرة من أسر قريش الشريفة بفتى مارد جرىء ويعطوه سيفا صارما ، ثم يضربوا رسول الله عليه السلام بسيوفهم المرهفة ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى الأسر فيهدر . فتفرقوا على ذلك مصممين عليه

قال هؤلاء الجهلة : إن تمثل الشيطان بصورة شيخ نجدى دليل على فساد عقيدة النجديين . وهذا جهل فاضح . والقصة لا تدل على على أكثر من أن قريشا ، وهم من نعرف أهل النخوة والادلال والاعجاب بالرأى ، وهم مضرب المثل فى الذكاء وصحة الفكرة وتوقد القريحة وسلامة الرأى ، يسلمون لرجال نجد الزعامة السياسية ، والامامة الدينية ، ويسلمون تفوقهم عليهم بالآراء والدهاء . ولهذا أدخلوا الشيطان حين ما انتسب إلى نجد وادعى أنه نجدى ، وأشركوه فى ذلك الحفل الذى جمع زعماء قريش ورؤوس ساستها ، وجعلوا قوله هو القول ، ورأيه هو الرأى . ويدل أيضا على أن الشيطان يعرف للنجديين ذلك ، ويعرف أن قريشا تعرفه لهم ، وهذا غاية التعظيم والمدح للنجديين

خلاف ما ظن هؤلاء . ولو كان يعلم أنه إذا انتسب إلى غير نجد أدخلوه وقبلوه لما وجد مانعاً من أن ينتسب ، ولعله لو فعل ذلك لطردوه

والشيطان قد يتصور في صورة ويقول : أنا رسول الله . ويتصور في صور العلماء والعباد المعروفين بالامامة والدين . يفعل ذلك للاضلال والاغواء . وقد يجيء بعض الناس ويقول له : أنا الله ، وقد أحللت لك كذا وكذا مما حرمت على غيرك ، ليفسد على ذلك لانسان دينه وعقله . فما فى انتساب الشيطان إلى بعض الناس أو بعض البلاد نقص فى أولئك الناس ولا تلك البلاد ، والعكس أقرب . فانه غالباً يتصور بصور الصالحين ، أومن يظن أنهم صالحون، ليستطيع التغرير والتضليل . وقد رووا أنه جاء إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني الصالح المشهور وقال له : أنا رب العزة ياعبد القادر . وقد أحللت لك كذا وكذا مما حرمته على غيرك . فقال له الشيخ عبد القادر : إخسأ . أنت الشيطان الرجيم فقال الشيطان : نجوت منى ياعبد القادر بفقهك ، ولقد أضللت بهذا خلقاً كثيراً من العباد والزهاد . والله أعلم

الرجاء تصحيح « لك » بـ « ذلك » فى الصفحة الاولى السطر الخامس

كتاب

السنن والمبتدعات

تأليف

حضرة الاستاذ العالم العامل النشيط الباحث

الشيخ محمد احمد عبد السلام

رئيس الجمعية السلفية فى الحوامدية

هو كتاب قيم كبير دافع عن السنة باخلاص وقوة ، وحارب البدعة ببرهان وحجة . ذكر فيه بدعاً وخرافات شاعت ما بين المسلمين واعتقدوها ديناً فزيفها كما ذكر أحاديث كثيرة موضوعة على صاحب الرسالة عليه السلام وقد حسبها كثيرون ممن لا خبرة لهم بعلم الحديث صحيحة ، فبين حالها بعلم وتحقيق . وفى الكتاب نصيحة مطولة لسائر العلماء والمسلمين . ومما يزين هذا الأستاذ ومؤلفاته ما امتاز به على كثير من علماء اليوم . وهو الاخلاص والعمل بما يعلم ، وبذل القليل والكثير من المال والوقت فى نشر العلم الصحيح وإحياء السنة الداثرة تأليفاً وطبعاً . ولهذا يجد القارىء لمؤلفاته تأثيراً غريباً لا يجده فى غيرها ، وهو تأثير الاخلاص والعمل . فجزى الله حضرة الأستاذ الشيخ احمد عن السنة وأهلها خير الجزاء . والكتاب يطلب من مكتبة المنار وغيرها من المكاتب الشهيرة . ولا تنس أن تقرأ سائر مؤلفات هذا الأستاذ فانها تنفعك كثيراً . وتجد فيها من الفوائد مالا تجدها فى كثير مما تقرأ